جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
دكتوراه – لغة

قراءات في كتاب سيبويه

" باب كان واخواتها "

أ.د نافع علوان بهلول الجبوري

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

دكتوراه / لغة

(المحاضرة العاشرة)

٢٠٢٣/١١/٢٨

٢٠٢٣م

١٤٤٤هـ

باب كان وأخواتها

قبل الدخول في الحديث عن هذه الأفعال ومساراتها في الدرس اللغوي العربي واستعمالاتها لا بدْ من الإشارة إلى أنّ الحديث عنها ارتبط مع الحديث عن الأفعال المتعدية الى مفعولين (ظنَّ) وأخواتها – وهذا ما أشار إليه سيبويه والرابط على ما بينّه سيبويه متعلقٌ (بالاحتياج) فعند حديثهُ عن ظنَّ وأخواتها ولا سيما في موضوع (الاقتصار) على أحد مفعوليها إذ قال : " ولا يجوزُ الاقتصارُ على الفاعل كما لم يجز في ظننتُ الاقتصار على المفعول الأول ؛ لأَنَّ حالك في الاحتياج الى الآخر ها هنا لحالك للاحتياج إليه " . وهذه الأفعال مع كثرة الحديث عن المسميات الخاصة بها فإنَّها قد تنوعت بالعمل وتنوعت في النوع واختلفت من فعلٍ لأخرٍ من حيث شروط اعمالهِ ولكنها تجتمع كلها في أنّها تأخذ ما يكمل معناها فتدخل على الجملة الاسمية وترفع الأول وتنصب الثاني ليكتمل معناها على الأصلي الذي وردت فيه فتقول : " كانَ عبدُ اللهِ أخاكَ " . وفي ذلك يُحمل ما للفعل من ميزات سيما في تقديم مفعوله على فاعله وبقاء العمل مع مدلول معنوي جديد قال سيبويه : وإنْ شئت قلت : " اوكانَ أخاك عبدُ اللهِ " فقّدمت واخرت كما فعلت في ضرب " . أي اَنّ الفعلَ يحمل على شبيهه أو ما قيسَ عليهِ في العمل فكما جاز في ضرب تقديم المفعول به على فاعله لمدلولٍ ما نحو : " ضربَ زيدٌ علياً " = " ضربَ علياً زيدٌ " . فإنَّه يجوز لكان ما جاز للفعل " ضربَ " . (لأنَّه فعلٌ مثلُه) وحالُ التقديم والتأخير فيهِ كحاله في ضربَ . والمشابهة عند سيبويه بينهما تجيز معاملة (كان) معاملة (ضَرَبَ) لذلك جاء سيبويه باستعمالات متعددة للفعل ضرب وقاس عليها للفعل (كان) واجازه فتقول :

كُنَّا هم كما تقول ضربناهم ، وتقول لم نكُنْهم فمن ذا يكونُهم كما تقول : إذا لم نضربهم فمن ذا يضربهم ، وتقول فهو كائنٌ ومكون كما في ضاربٌ ومضروب .

استعمالات كان عند سيبويه

١- إنّها تدخل على الجملة الاسمية فيكون الأول مرفوعاً اسماً لها ، ويكون الثاني خبراً لها منصوباً ، وهي تحمل على الفعل المتعدي الى مفعولين اصلهما مبتدأ وخبر . فتقول : (كانَ عبدُ اللهِ أخاك) .

٢- اقتصارها على الفاعلِ ، وها هنا تكون تامة ، ولكنها تحمل على التضمين أي تتضمن معنى او مدلول فِعلٍ آخر وهذا ما أشار إليه سيبويه بقوله : " وقد يكونُ لكانَ موضعٌ آخرٌ يُقتصر على الفاعلِ فيهِ تقول (كانَ عبدُ اللهِ) أي (قد خُلِقَ عبدُ اللهِ) (كانَ الأمرُ) أي (وَقَعَ الأمرُ) (قد دام فلان) أي (ثبت فلان) وقياسه القولُ في الفعلِ (رأيتُ زيداً) تريد رؤيته بالعين او كما قال سيبويه (رؤية العين) وكما تقول : (أنا وجدته) تريد (وجدانِ الضالة)

٣- بخصوص بقية الأفعال فإنّ الأفعال (اَصبح واَمسى وصار) من الأفعال قد تأتي مرة بمنزلة (كان) ومرة بمنزلة (قولك / استيقظوا ، وناموا) خلافاً ل (ليس) وذلك اَنّها وضعت موضعاً واحداً ومن ثم لم تصرف تصرف الفعل .

ومن استعمالات العرب ل (كان) التي جاءت بمعنى وقع قول الشاعر:

(فِدًى لِبني ذُهْلِ بنِ شَيبانَ نَاقَتي إذا كانَ يومٌ ذو كواكبِ أشهبُ)

أي إذا وَقَعَ .

أثر الرواية والاستدلال بها

واهتم سيبويه بالرواية الثانية للبيت الشعري وبما يتفق والاستدلال الشعري عنده للقضية المتحدث عنها ففي رواية (عمرو بنُ شأس) :

(بني أسدٍ هل تَعلمُونَ بلاءنا إذا كانَ يوماً ذا كواكب اشنعا)

قال سيبويه : وسمعتُ بعض العربِ يقول : اشنعا ويرفعُ ما قبله كأنَّه قال (إذا وقعَ يومٌ ذو كواكبِ) أي الرواية على ذلك : (كان يومٌ ذو كواكبِ) وهو ما يصدق إعمال كان تامة وبمعنى : (وَقَعَ) ، واستبعاد اعمالها على الأصل على الرواية الأولى .

أيهما أوقع بعد كان النكرة أم المعرفة

وفيما يخصُ حديث سيبويه ايهما أوقع بعد (كان) واخواتها إذا وقع احدها نكرة والأخر معرفة ، فقال سيبويه : وهما في كانَ بمنزلتهما في الابتداء إذا قلتَ (عبدُ الله منطلقٌ) تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر وذلك قولك (كانَ عبدُ اللهِ حليماً) او (كان زيدٌ حليماً) و (كانَ حليماً زيدٌ) قدّمت أو أخّرت على ما ذكرت مع (ضَرَبَ) . فاذا قلت : (كانَ زيدٌ) فقد بدأت بما هو معروفٌ عنده مثلُهُ عندك .فإنّما ينتظرُ الخبر فاذا قلتَ حليماً فقد أعلمته مثلَ ما علمتَ . فإذا قلت : (كانَ حليماً) فإنّما ينتظرُ صاحبَ الصفة أو أنْ تعرفه بصاحب الصفة فهو مبدوء به في الفعلِ وإنْ كان مؤخراً في اللفظِ فإن قلتَ : (كان حليمٌ أو رجلٌ) : فقد بدأتَ بنكرة ولا يستقيم أنْ تخبر المخاطبَ عن المنكور وليس بهذا الذي يَنْزلُ به المخاطب منزلتَكَ في المعرفة .

مخافة اللبس في الاخبار بـ (كان)

وإذا اردت الاخبار ب (كان) من معروفٍ عندك أو عند المخاطب أو المسؤول وكان المبتدأ به أو المخبر عنه يحمل أكثر ما صفة وجب الاخبارُ بالصفة الأكثر معرفة لبيانه وايضاحه وعدم وقوع الالتباس في شيء أو صفة أخرى ففي القول : (كانَ زيدُ الطويلُ منطلقاً) فهو يرفع اللبس عن زيدين أحدهما طويل والآخر قصيرٌ فجاءت الصفة لرفع ذلك اللبس ، ويقول سيبويه ولذلك تقول: (أسفيهاً كانَ زيدٌ أم حليماً) و (أرجلاً كانَ زيدٌ أم صبياً) تجعلها لزيد لأنّه انما ينبغي لك أنْ تسأله عن خبرٍ من هو معروفٌ عنده كما حديثه عن خبر من هو معروف عندك فالمعروف هو المبدوء بهِ ولا يبتدأ بما يكونُ فيه اللبسُ وهو النكرة .

لذلك فلم يصح عند سيبويه القول : (كانَ رجلٌ منطلقاً) او (كانَ انسانٌ حليماً) لوقوع اللبس بهِ ؛ لأنه لا يُستنكر أنْ يكونَ في الدنيا انسانٌ هكذا فكرهوا أنْ يبدؤا بما فيهِ اللبس ويجعلوا المعرفة خبراً لما يكون فيه هذا اللبس وقد يجوزُ في الشعر وفي ضعف من الكلام حملهم في ذلك أنّه فِعْلٌ بمنزلة (ضَرَبَ) وأنّه قد يعلم إذا ذكرتَ زيداً وجعلته خبراً أنّه صاحبُ الصفة على ضعفٍ من الكلامِ .

وذلك قول خداش بن زُهير :

(فإنّك لا تُبالي بعد حَوْلٍ أظبْيٌ كانَ أُمَّك أم حِمارٌ)

وقال الفرزدق :

(أسكرانُ كان ابن المراغة إذ هجا تميماً بجوفِ الشامِ أم متساكرُ)

فقد جيء باسم كان نكرة وخبرها معرفة للضرورة . ففي كلا البيتين استدل بمجيء اسم كان نكرةً والاخبار عنه بالمعرفة وهو خلاف الأصل وإنّما جيء به للضرورة . فالأصل المعتمدُ في كان كما هو مذكور في كلام العرب أنْ يُبتدأ بالمعرفة أو بالمعروف كما ذكرنا ذلك .

ففي قول الشاعر : (أظبيٌ كانَ أُمَّك أم حمارُ) هو لخداش بن زهير والظبي الغزال ، والمعنى (لا تبالِ بعد قيامك بنفسك) واستغنائك عن أبويك بمن انتسبت إليهِ من شريف أو وضيع .

واعلم أنَّه إذا اجتمع في نكرة ومعرفة فالذي يجعل اسم كان المعنى على ذلك لأنَّه بمنزلةِ الابتداء والخبر . ألا ترى إنَّكَ إذا قلت (كانَ زيدٌ قائماً) ف قائِمٌ هو الخبر عن المبتدأ زيدٌ وقول النحويين خبرُ (كان) إنّما هو تقريبٌ وتيسيرٌ على المبتدئ لأنّ الأفعال لا يخبر عنها ولو قلتَ (كانَ رجلٌ قائماً) أو (كانَ انسانٌ قائماً) لم تفد المخاطب شيئاً ، لأن هذا معلومٌ عنده أنَّه قد كان ، أو قد يكون ، والخبر موضوع للفائدة . ولذلك لو قربت النكرة من المعرفة بالأوصاف لجاز أنْ تخبر عنها لأنَّ فيها فائدة وذلك قولك (كانَ رجلٌ من بني تميم عندي) ، لأنَّ هذا مما يجوزُ في الابتداء نحو : (رجلٌ من بني تميم عندي) لأنَّه بالصفة قد تخصص فقُرِبَ ما المعرفة . وربما اضطَر شاعرٌ فقلبَ وجعل الاسم نكرة والخبرُ معرفة وإنّما حملهم على ذلك معرفتهم أنَّ الاسم والخبر يرجعان الى شيءٍ واحدٍ فإيهما عرِفت تعرف الأخر وهذا معنى قول سيبويه " الذي شجعهم على ذلك من الإلباس وما استدل به من الشعر (أظبيٌّ كانَ أُمَّكَ أم حِمارٌ) و (أظبيٌ) الهمزة للاستفهام ، ظبي اسم مرفوع لفعل ناقص محذوف يفسره الفعل الظاهر ، (كان) فعل ماضي ناقص مبني على الفتحة الظاهرة واسمه ضمير مستتر فيه جوازاً تقديره هو ، (أُملَّ) خبره منصوب بالفتحة وهو مضاف (والكاف) ضمير متصل مبني في محل جر مضاف اليهِ ، (أم) حرف عطف ، (حمارٌ) اسم معطوف على (ظبي) مرفوعٌ مثله بالضمة . وجملة (لا تبالي) في محل رفع خبر (إنّ) وجملة (أكانَ ظبيٌ) في محل نصب مفعول بهِ ، وجملة (كانَ أُمك) تفسيرَهُ لا محل لها من الاعراب والشاهد فيه (كانَ أمك) حيث قلب فقدم خبر كانَ على اسمها .ونحو بقية الابيات الواردة فقول الفرزدق (أسكرانٌ كان ابنَ المراغةِ ...)

فالتقدير كان هو ابنَ المراغة والاصل (كانَ سكرانٌ ابنَ المراغة) . وهذا اشاذٌ بعضهم ، واكثرَهم ينصب السكران ويرفع الأخر على قطع وابتداء واذا كانا معرفةٍ فانتَ بالخيار ايهما ما جعلته فاعلاً رفعته ونصبتَ الأخر كما فعلت ذلك في (ضَرَبَ) . وقد ساوى سيبويه بين اسم كان وبين الفاعل وبين المفعول بهِ وخبرها قياساً على ضربَ (ضَرَبَ زيدٌ علياً) = (كانَ زيدٌ حليماً) فهي (كانَ زيدٌ أخاك) زيدٌ (معرفة) اخاك (معرفة) (كان أخوك زيداً) ولما كان كلاهما بمرتبة واحدة فأنتَ بالخيار ايهما ابتدأ ن صح عند سيبويه .

وفي كلِّ المراتب التي يتساوى فيها المبتدأ و الخبر في التعريف فالخيارُ للمتكلم .

١- كانَ أخوك زيداً

٢- كان زيدٌ صاحبَكَ

٣- كان هذا زيداً

٤- كان المتكلمُ أخاكَ

٥- من كانَ أخاك ؟

٦- من كان أخوك ؟

كما تقول من ضربَ أباك ؟ إذا جعلتَ (مَن) ومن ضربَ أبوك ؟ إذا جعلت الاب الفاعل وكذلك أيُّهم كان أخاك وأيَّهم كان أخوك .

٧- ايُّهم كان أخاك

٨- ايُّهم كان أخوك

٩- ما كان أخاكَ إلا زيدٌ ... كما تقول : ما ضربَ أخاك إلا زيدٌ ومثال ذلك قوله تعالى :

(ما كانَ حُجْتُهمْ إلاَّ أنْ قالوا) وقوله تعالى : (وما كانَ جوابَ قَوْمِهِ إلاّ أنْ قالوا) وقال الشاعر:

(وقد عَلِمَ الأقوامُ ما كانَ داءَها بثملانَ إلا الخزيُ ممن يقودُها)

وإن شئت رفعت الأول كما تقول : (ما ضربَ أخوكَ إلا زيداً) ، وقد قرأ بعضُ القَّراء ما ذكرنا بالرفع ومثلُ قولهم : (من كانَ أخاك) قولُ العرب : ما جاءتْ حاجَتك كأنّه قال ما صارت حاجَتكَ ولكنَّه ادخل التأنيث على ما حيث كانت الحاجة .